حُكم الهَوى

كان لنا فى قرية . . . من قرى مديرية الغربية صديق ذو كرم وشهامة تكتظ داره دائماً بمشايخ الفلاحين ومن سواهم من أصحابه وغير أصحابه ومن العظماء وذوى الحاجات . وكنت وجماعة من أصحابى نمضى عنده كل عام أسابيع نطمئن فيها إلى نفوسنا وننسى فيها متاعب الحياة . فإذا ذهبنا إليه استقبلنا بالبشر والترحاب ، ونزلنا منه فى رحب وسعة ، وقضينا وقتاً بين التنزه فى رياض حدائقه ومشاهدة ملاعب الخيل التى تقام لمسرتنا ، وبين المزارع الواسعة نقطع شاسع مسافاتها سعياً على الأقدام أو ممتطين متون الجياد . ولقد غرس صاحبنا فى مزارعه كثيراً من الشجر أعان خصب الأرض على نموها وكثرتها ، فكانت للسائرين تحتها ظلا ظليلاً يبعث إلى النفس أنساً ومسرة ويقيها حر الشمس أيام القيظ .

وكان لصديقنا ثلاثة أبناء لا يزالون ، على تقدم سنّ أبيهم ، يتمتعون بلذائذ الطفولة ويرتعون فى نعمة حريتها . وكان أبوهم يحبهم حب العبادة . فإذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها الحنان والعطف ، ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعيم . وإذا اقترب أحدهم منه أخذه إليه فى تلطف وقبّل جبينه النقى وحدق إليه طويلا ، ثم أجلسه على ركبته ومسح شعره ، وشمله من حنانه بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد . وكذلك كان غلوه فى محبة أولاده موضع دهشة الكثيرين ممن يحلّون فناءه .

وقد انتقلنا يوماً ونحن عنده من غرف الضيافة إلى فناء رحب لنشهد ملعب خيل، اجتمع إليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم من فرح كانوا

يتسابقون فيه . وجاء أوسط أبناء صديقنا ووقف بجوار أبيه ، فرفعه إليه وقبله وأجلسه إلى جانبه . وسرعان ما انتظمت الحلقة فدق الطبل وتقدم إلى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر البطن والساق طويل شعر الذنب ضليع . وراض الفارس جواده ، حتى إذا تمكن من تتبع إيقاع الطبل رأيته كأنه الراقصة على المسرح ، يترنح ويميل ويدل ويعجب ، يرفع رأسه تارة فتمسح أصداغه « كراريت » رأس لجامه . ويتقدم إلى الأمام مسرعاً تارة أخرى فيضيف إلى نغمة المزمار نغمة صريف الأهلة الفضية التى تزين واسع صدره ، ثم إذا به كأنه ثمل انتشى فتثنت أسؤقه حتى كاد بطنه الضامر يمسح الأرض . وما هى إلا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظر يمنة ويسرة فى كبر وخيلاء . وإنا لكذلك مأخوذون برقص الجواد إذ أقبل أحد وجوه أهل البلد فوقف القوم يحيونه ، وأجلسه رب الدار إلى جانبه ، وقام الابن فوقف مع الأطفال الواقفين . وعاد الجواد يدهش الناس بتمايله وتثنيه ، وبدله وكبره ، ويلعب أبدى فيه من جمال قوامه ما تحرص كل راقصة على إبدائه حين تفتنُّ فى لين الحركات ، وتثنى القد ، وحديث الجسم كله بما يستكن فيه من أنغام الجمال . فلما أتم دوره خرج يتبعه الإعجاب والعطف . ودخل الحلقة جواد أشهب ليس به شامة إلا ما سال من محاجره . وما كان أكبر الفرق بينه وبين سلفه ! احتاج فارسه إلى أن يعمل فيه السوط والركاب لينال منه بعض حركات تعجبه . وساد وسط الجمع هرج بدل صمتهم الأول . وليت هذا الأشهب ما خرج . فإنه لمَّا أمضه السوط ومزق جنبيه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا ، ونال ابن صديقنا المحبوب من الذعر ما وقع معه مغشياً عليه ؛ فقام أبوه كالمجنون يجرى إليه ليرى ما حل به ، وجعل يحدق إليه ، فإذا عيون مغمضة وخدود مصفرة ولون ذاهب ، فصاح : « يا بنى ! » صيحة سمعها الناس وما زالوا يتدافعون مولين لا يفكر أحد منهم فى كلمة عزاء لهذا

الأب الذاهل يشاركه بها فى ألمه بعد إذ دعا هو الناس ليشاركوه فى غبطته ومسرته . وأحطنا نحن بصديقنا ، ومن بيننا طبيب أراد أن يستخلص الطفل من يد أبيه ، فإذا الأب ممسك بابنه حريص عليه تختلج قلبه الزفرات وتجول فى عينه العبرات ، حتى كأنما بدا له اليأس منه ، فهو يريد أن يعانقه عناقاً أخيراً طويلا . ثم ذهبنا إلى دار الضيافة واقتدناه معنا إليها . فلما احتوتنا الدار أمسك الطبيب يد الطفل ونظر إلى وجهه ، وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه ، فإذا الطفل يفتح عينيه ويجيلهما فى الغرفة وما يزال به أثر الذهول . فلما رآه أبوه رجع إلى الحياة أخذ يده وقبلها وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زايل الولد ذهوله وعاد إلى الحياة وعاوده توردة الجميل .

بعد أيام وقد انصرف أصدقائى لبعض رياضتهم ولزمت البيت لبعض شأنى ، وبقى صديقنا معى يحادثنى ، أقبل علينا هذا الابن وجلس معنا . فقلت لأبيه فى ابتسامة :

– لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه . ولا أنكر عليك أن أباً يحب أبناءه حبك لأبنائك جدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك .

فتنهد طويلا وقال :

– أى هم وأى شجن رأيت ! لقد قضيت طوال السنين وحياتى فى شجن وهم حتى ابيض شعرى وشاب مفرقى . ثم انقضى الهم والشجن بعد أن بلغت ما أردت . وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الأبناء الذين ترى . أفترانى بعد ذلك مغالياً إذا بلغ حبى لهم حد الجنون ؟ !

لم أفهم كل ما أراد أن يقول . لكننى أدركت أن له فى الحب حديثاً طويلا ، وأنه قاسى فى سبيله أكثر ما يقاسى الرجل ، ثم حصل على من أحب وبنى بها ، فأنجبت له هؤلاء الأبناء ، فشاقنى أن أقف على همه الأول وشجنه

الماضى ، فقلت : أى هم تريد ؟ لعل لك حديثاً لا تضن علىَّ بذكره ! قال :

– إنه يا صاح حديث حياتى . وما ذكرته مرة وذكرت كيف توج القدر جهادى بالظفر إلا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد فيها . وإنك لصديق وفىّ لا يضن عليه بشىء ، فاستمع إلىَّ :

* * *

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبى . وكان لهذا الجار ابنة أصغر منى بنحو ست سنوات ، جمعت الطفولة بينى وبينها برابطة المودة . فلما كساها الشباب بديع حلته أخذت قلبى محاسنها ، وفتنى جمالها ، وجعلت أختلس اللحظات لأخلو بها أحدثها متعارف القول ومألوف الحديث ، وأشعر بكل ما فى ذلك من نعمة ومتاع وحياة . ثم أحسست أن لى فى نفسها مثل مالها فى نفسى ، ففاتحتها حديث الحب ، وتعاهدنا على الوفاء .

ومضت سنون وهذا الحب ينمو فى نفسينا ، ونزداد نحن إحساساً بعظيم ما له من سلطان علينا ، حتى بلغنا من ذلك أن كنا لا نتفارق إلا على موعد للقاء ، وأن كنا نقضى ما بين اللقيين فى شوق ولهف ما أشدهما ! فلما عرف أهلنا ما بيننا كان أول ما صنع جارنا أن حجز ابنته عن الخروج من الدار . فهالنى الأمر وأزعجنى وأدخل الهم على نفسى ، وكدت أجن من فرط ما بى . ثم عولت على أن أستعيد وإياها عهدنا الجميل الطاهر . ففتقت لى الحيلة أن أستعين بعجوز تتردد على بيتنا لأستطلع رأى محبوبتى فيما اعتزمت ، وجعلت أحابى العجوز بالإحسان ، وأمنحهـا أشياء ضئيلة القيمة ولكنها ذات شأن فى نفوس أولئك الريفيات . فلما استوثقت منها سألتها أن تكلم صاحبتى فى أمرى لترى أهى ما تزال مقيمة على عهدى . فلما اطمأننت إلى حرصها على لقياى فكرت مع العجوز فى وسائل هذه اللقيا وطرق الخفية فيها .

ولم يكن ذلك عسيراً على امرأة قضت السنين بريد المحبين ، ومستودع سر المشوقين . وكانت لقيانا كل ليلة فى فترة ما بين المغرب والعشاء حين يكون أبوانا فى الجامع يصليان الفرضين ، ويقومان لله بواجب الحمد على عظيم نعمته . فى هاته الساعة كنا نلتقى فنجدد عهدنا ، ونتذاكر حبنا ونتمتع باللحظات التى تمر بنا ونزيد عليها المتاع بذكر الماضى . فإذا أذن المؤذن بالعشاء جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب . وما كان أمرّ ساعة الفراق على نفسينا لولا الأمل فى اللقاء !

ثم تحادثنا فى أمر الزواج كيما ينتهى ما يوجب الفراق . لكن الشعور بأن الحياة الزوجية ، وإن أسعدها الإخلاص ، تخمد سعير نار الحب الذاكية ، جعلنا لا نتعجل هذا الزواج ولا نفاتح أحداً من أهلنا فى أمره . وبقينا قانعين بتلك السويعة بين الفرضين كل يوم مستمتعين منها بكل ما تحويه من سعادة .

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس النعيم . وإنا لجلوس ذات ليلة نتناجى إذ أقبلت العجوز قبل موعدها مذعورة تنادى بصوت مختنق ، مخافة أن يسمع ، منذرة بالويل والثبور ، قائلة : إن أبا محبوبتى عاد قبل عادته ، كأنما كان على علم بما بيننا . فإنه ما لبث بعد أن تخطى عتبة الدار أن سأل عن ابنته وألح فى المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها أنها تستحم ولا منتظر مجيئها من حيث تكون .

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولانى الجمود . أترانا سنفتضح ؟ وهل يمكن أن يطعن شرف محبوبتى بسببى ؟ لا . لا ! إنى لن أحتمل هذا . ولا بد من درء الخطر بأية وسيلة . . ولم تمر لحظة حتى ملكتنى فكرة اللحاق بأبى ومصاحبته طوعاً أو كرهاً إلى أبيها وخطبتها إليه زوجاً لى ، وملازمته حتى يذعن لما أريد . وأخبرت صاحبتى بعزمى ، وطلبت إليها أن تبقى حيث

هى حتى تجيئها العجوز بخبر دخولنا إلى أَبيها فتدخل هى إلى الدار خفية حين يكون أبوها مشغولا بنا عما هو فيه من الهياج .

وهرولت مسرعاً إلى أَبى وناديته وكان لا يزال فى المسجد ، فخرج إلىَّ وتبعنى من غير تفكير ومن غير أن يسألنى عن سبب مناداته مكتفية عواطفه بما رآنى عليه من اضطراب لتسوقه كى يتبعنى ويقضى طلبتى وغرضى . ولم أَجد كبير عناء فى إقناعه بالذهاب من فورنا إلى جارنا نخطب إليه ابنته . ودخلنا منظرة الرجل وبعثنا له بالخبر بقدوم أبى إليه . فما لبث أَن جاء متكلفاً البشاشة مطرحاً ما استطاع مظهر الهياج والغضب . وطلب القهوة ورحب بأبى وإن لم تخف علىَّ نظرات منه كانت تتجه أحياناً إلىَّ وبها شىء من الحنق ، بل من حب الانتقام .

وحضرت القهوة فقمت من حضرتهما تأدباً ، وتلفت ساعه خروجى من المنظرة ، فرأيت العجوز تومئ إلىَّ أن أطمئن . وأزالت حركة العجوز مخاوفى ، فجعلت أفكر فى أمر ما سيتم هذه الليلة وأنا مضطرب بين السرور به والوجل منه . ثم رجعت إلى المنظرة فوجدت أبى وحده ، فسألته عن جلية الأمر ، فأخبرنى أن صديقنا دهش لهذه الخطبة غير المنتظرة ، وطلب إليه أن يمهله حتى يدخل إلى أهله فيشاورهم فى الأمر لعل لهم فيه رأياً . وقد علمت من بعد أنه أول ما دخل سأل زوجه :

– هل جاءت البنت ؟

– نعم إنها فرغت من استحمامها وخرجت . أفأنادى بها إليك ؟

– إن جارنا يخطبها لابنه . فما رأيك ؟ وهل لك علم برأيها فى ذلك ؟

– ومن لى بأن أعلم وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة ، ودعنى أسألها .

فصاح الرجل بغتة :

– يافاجرة ! من لك بأن تعلمى ! أو ما عرفت ما بينهما وكيف يلتقيان ؟

– كيف يلتقيان ! هدئ من روعك يا صاح ! إن ابنتك من يوم احتجبت لا تعرف ما وراء بابنا ، فأنى لك بتصيد أخبار كالتى ترميها بها ؟ !

– كفى كذباً يا خبيثة وأدخلى البنت علىَّ لتوها وإلا فإنى قاتلها . لن أرضى الخنا تحت سقف يظله الشرف ! أين هى ؟ .

فظهرت على الأُم سيماء الجد وقالت بلهجة الحازم القدير :

إن لم تهدئ من حدتك فلن تراها ، اقتلنى إن شئت لكنى لن أدعها تدخل على أب طائش الحلم يرمى فتاة طاهرة بأقبح سبة من غير سبب . فأما إن راجعك صوابك وأعطيت على نفسك موثقاً أن تقابلها ببشر الأب الرزين ، فستراها بين يديك قبل أن يرتد إليك طرفك .

فأطرق الرجل ثم خرجت الأم ، ولم تك إلا برهة حتى عادت تصحبها البنت وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعيناها براقتان وخدها محمر . فلما رآها أبوها كذلك وجم هنيهة احتقن أثناءها الدم فى رأسه ثم سألها :

– إن جارنا يخطبك لابنه فماذا تقولين ؟

خفضت الفتاة طرفها حياء وتولت الأم الجواب :

الأمر لك وما كان لبنت أن تراجع أباها أو ترد عليه قولاً . . .

ثم أشارت لابنتها أن تخرج . فلما قاربت الباب ناداها أبوها مغضباً :

– لعلك مرتاحة لهذا الخبر ! ألا فاعلمى أن الطلاق يلزمنى ثلاثاً إن أتممت هذا الزواج ! وأنت أيتها الفاجرة ! قومى من وجهى . اخرجا ، اخرجا . واعلما أنى رقيب عتيد .

ورجع الرجل من حرمه إلينا وهو فى هياجه ، ولبث زمناً سكت عنه الغضب فيه ثم قال لأبى :

– اسمع يا أخى . ما كنت لأعز عليك شيئاً وإن جل ، ولا كنت لأمنع عنك ما طلبت . لكنك تعلم أنى حجزت ابنتى بسبب ابنك الذى لا أسميه كى لا أغضبك . ولقد حلفت اليوم بالطلاق ثلاثاً ألا أزوجها منه ، ولن أحنث فى يمينى . ومالك عندى من الحب والاحترام لن يؤثر فيهما أمر تافه كهذا . لكن بحق هذا الحب الذى بيننا إلا عقلت ابنك عما قد يمس بيتى وما يقيم بيننا ثأراً لا تمحوه يد الزمان . وفتيات بلدنا كثيرات ، وبينهن من يفضلن ابنتى . فما عليك إلا تزويجه من إحداهن . وفى ذلك . . . .

لم أعرف ما قاله بعد ذلك فقد أصابتنى حمى صحت معها :

– ألا لعنى الله إن لم أتزوجها ! وتعساً لك أيها الشيخ وللزمان ! وخرجت هائماً على وجهى وقد تولانى اليأس فأضل صوابى وضيق العيش أمامى ، وجعلنى أرى كل ما فى الحياة عدواً لى ، وخيل إلىَّ لحظتئذ أن لا بد لى من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتى وانتزاعها من بين أهلها والفرار بها لنقيم معاً دائماً وإلى الأبد .

وكانت ليلة قرة ، لكن السماء كانت صفواً ، وكان البدر المتألق يبعث فى لجة الليل خيوطاً من فضة تنير دجاه بضياء رقيق مطمئن . لذلك خشيت ، بعد ما سكن هواء تلك الساعة روعى إن أنا هممت بتنفيذ عزمى أول الليل ، أن يحس الناس بى ، وأن يكون الإخفاق نصيبى . فعرجت إلى المسجد ومكثت فيه ردحاً من الزمن أفكر فيما أنا فيه شارع . وإنى لكذلك إذ مر بخاطرى أن مباغتة الفتاة على غرة ومن دون علمها بالذى أنوى ، ربما أدخل الجزع إلى نفسها وجعلها تعترض ما أريد . لذلك رأيت أن ألجأ إلى العجوز المدبرة أستعين بها وأتدبر الأمر معها . وألفيتها عند مجاز الدار مكتئبة بائسة . فسألتها عما أصابها وفاتحتها فيما اعتزمته ومنيتها بكبار الأمانى . فما زادت جواباً على ذلك كله أن قالت :

- قضى الأمر يا مولاى ؛ فقد أقفل بابهم فى وجهى ، فلا أستطيع أن أدخله بعد اليوم .

قلت : واليوم ، الآن ، هل فى طاقتك الوصول إليها ولو عن طريق الشياطين ؟

فأطرقت طويلاً ثم رفعت رأسها وقالت : لا سبيل ! فلعنتها وخرجت قاصداً بيت محبوبتى لأتم فعلتى ولو كلفنى ذلك ما كلفنى . فلما كنت إزاء بيتنا بصر بى أبى فنادانى إليه ، فأفقت حين سمعت صوته وتوجهت نحوه ، فجعل يطمئننى بكلمات رقاق . وصحبنى حتى أمسى الليل وغلقت دونى الأبواب ، لكن ذلك لم يزدنى إلا عزماً . فخرجت بعد هجعة الناس وتسلقت جدار جارنا ووقفت إلى جانب الغرف أتسمع فلما أيقنت أن لا حسيس دلفت إلى غرفة نومها ونوم أمها وطرقت الباب ، فانتبهت الأم وفتحت . وإذ تبينت وجهى فى ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة ، ثم أقبلت إلىّ ثانية وأدخلتنى إلى الغرفة وأوصدتها ، وقالت بصوت تخنقه العبرات :

– بربك يا بنى ارحم أسرة إن أنت أتممت ما قدمت له قذفت بها إلى حضيض العار . بربك يا بنى ! بحق هاته النائمة المهدودة التى نهكها التعب . بحق أنا وبحق الجوار لا تجن عليها ، لا تقتل أباها المسكين . ابنتى تحبك ولكن نفذ القضاء . ارجع وأنت واجد من النسيان خير تعلة ، وفى غيرها من تعدلها مرات . ارجع يا بنى .

أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتاً صلداً منتظراً أن تفرغ من خرافتها كى أحتمل فريستى وأذهب بها . وفيما أنا فى انتظارها استيقظت الفتاة وحدقت إلىّ . فلما تبينتنى على ضوء المصباح الضئيل انتقلت من مرقدها وأقبلت إلىّ وتعلقت بعنقى وجعلت تبكى ، ثم قالت :

– الوداع . . .

– كلا ! اذهبي معى الآن إلى حيث أريد .

فارتجفت الفتاة ثم تمتمت :

– رحماك حبيبي بأمى وأبى ، ورحمة بى أنا أيضاً . الوداع الآن ، ولكنا سنلتقى فى المستقبل . بالله إلا ما رجعت أدراجك ، وبحق هذه الزيارة لن يكون لغيرك فى قلبي مكان ما حييت .

وأغلظت فى الأيمان وألحت وبكت ، فأخمدت عبراتها عزيمتى وقبلتها قبلة الوداع ورجعت أدراجى .

* * *

بعد هذا الحادث بأشهر زوّجها أبوها من أحد أعيان القرى المجاورة . وكانت ليلة عرسها ليلة مأتم عندى . لزمت البيت وانفردت فى غرفة من الغرف وذرفت الدمع وتولانى القنوط . وفى الصباح رأيتها خارجة من القرية فى هودج وقد أحاط بها رجالها ورجال العروس وساروا جميعاً وفى يد كل منهم نبوته ومع البعض طبنجات سمعت طلقات منها تذهب فى الهواء . فلما ابتعدوا رجعت إلى نفسى أفكر والحزن يفيض عنى . وإنى لكذلك إذ جاء أبى وصديق له . فلما رأيا ما أنا فيه من الهم أخذا يرفهان عنى ، وأكد لى أبى أنه سيزوجنى من فتاة متى عرفتها نسيت صاحبتى ونسيت ما كان بيننا من ماض طويل سعيد .

وصدق أبى وعده . فعقد لى بعد أسابيع على ابنة عمدة أكبر البلاد المحيطة بقريتنا . وأقيم لى ولها عرس نادر المثال . فلما حضرت زوجى عندى رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن ، فرأيت أن أنسى فيها نفسى ، وأجعل منها موضع حبى ، وأسدل على ما قبل يومها عندى حجاباً كثيفاً يحول بيننا وبين ماض كان لذيذاً وكان لى فيه سعادة وهناءة ؛ فما مضى انقضى وليس إلى إحيائه أو استعادته سبيل . وعملت لذلك بإخلاص

وجد . ووجدت من زوجى نعم المعين . وكان أكبر ما وجهت إليه عنايتى أن أخلق بيننا فى وقت قصير ماضياً طويلاً فأكثرنا من التروض والأسفار ، ووصلنا ليلنا بنهارنا لنظفر بأكبر قسط من السعادة يجب أن نناله . وكانت الفتاة نادرة الذكاء واسعة الحيلة ؛ فسرعان ما فهمت مواضع الضعف منى ، فاستفادت من فهمها هذا ونالت بذلك كثيراً من عطفى وميلى ، وجعلتنى أعتقد أنى سأجد فيها ما ينسينى كل هم وشجن . وبقينا كذلك شهوراً اطمأنت هى فيها واطمأن كثير من أهلى إلى اندثار كل أثر لمحبوبتى الأولى من نفسى وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبى . والحق أنه اشتمل نفسى هدوء صادق ، وذهب ذلك اليأس القاتل الذى كان آخذاً بتلابيبى إلى ما بعد زواجى ، وسكنت كلوم طالما استثارت منى صيحات الحزن والأسى .

وإنا لكذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبى وجارنا الخروج معاً إلى الحجاز . فلما انتهينا من التجهيز وآن موعد السفر ، أقبل جمع غفير من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين . وكان فيمن أتى محبوبتى وزوجها . وبقى الناس فى هرج الوداع ومرجه أياماً . فلما جاءت ليلة البرزة خرج المسافران ومعهما جمع غير قليل ، فنصبوا الخيام خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم . ألا سقياً لك يا ليلة بروز أبى للحج ! لقد جررت علىَّ مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها كاهلى ، لكنك توجتها جميعاً بالفوز وختمتها بالسعادة .

كان فيمن خرج إلى خيمة النساء محبوبتى . وفيما أنا أطوف والناس فى زحمة العشاء لحتها خارج الخيمة ، فوقفت مبهوتاً أحدق إليها . ورأتنى هى أيضاً فبهتت . ثم إذا قوة قاهرة دفعت كل واحد منا نحو صاحبه ، فتقاربنا حتى وضعت يدها فى يدى من غير أن ينبس أحد منا ببنت شفة . فى تلك اللحظة الرهيبة الرغيبة ، لحظة اللقيا بعد طول الفراق ، فى تلك

اللحظة الجميلة المهوبة خيم علينا الصمت وتولانا الذهول . . . وبعد زمن خيل إلىَّ فيه أن وجودى تلاشى فلم يبق لى من الحياة إلا هذه اليد الممسكة بيدى ، سمعت ملكى تتمتم وكأنما خنقتها العبرة :

– هكذا تنسانا ! .

لو أن الأرض انشقت ، والسماء هدت ، والجبال دكت ، لكان ذلك أهون وقعاً علىَّ من هذه الكلمة . نعم نسيتها أنا الشقى . فيم عساى أكفر عن ذنبى ؟ وأى جواب أردُّ به عليها ؟ وبعد لأى قلت :

– غفرانك صاحبتى ! لقد أحييت من نفسى لوعة لا بد لى بعدها من الظفر بك أو الموت فى سبيلك . وموعدنا غداً بعد عودتى من السفر حيث كنا نلتقى فى رعاية العجوز .

وتتاركنا . . .

تتاركنا وقد نفر من كلومى ما كان قد سكن ، وجشأت نفسى وجاشت ، وثار وجودى كله ، وصرت لا أعى شيئاً مما يدور حولى ولا أبصر إلا موعد الغد . وقضيت ليلة نابغية ملؤها الهم ، وقابلت زوجى لبعض شأنى ، فما وقع نظرى عليها حتى رأيت الثعبان الذى نفث سمه فى حياتى ودفعنى إلى ارتكاب جريمتى .

ولم يتسع الوقت لأصب عليها جام غضبى ، فاختطفت من يدها ما قدمت وأسرعت إلى الباب ، فتبعتنى تريد أن تعرف ما بى ، فزجرتها بكلمة شديدة قابلتها بصبر وردت عليها بكلمة رقيقة كان جوابها منى :

– ارجعى يا لعينة أو أنت طالق ! .

رجعت هى ، وسافرت أنا إلى السويس ، وأنزلت أبى الباخرة وعدت قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معى فى العودة ، ومن غير أن يعلم أحد بعودتى : وقطعت الطريق بين المحطة وقريتنا واجلاً سالكاً أقرب الطرق

رغم وعورتها ويممت موعدى ، فإذا حبيبتى تنتظرنى . فلما رأتنى بادرت بالسؤال :

– كيف وجدت عودتك ؟ ولعلك كما أحب وتحب ! .

نعم يا صديقتى . ولعل مقدمى يسرك . وكيف أنت الآن ؟

كيف أنا ؟ . . أواه يا صاحبى لو تعلم ! لقد قضيت أيامى منذ تزوجت وأنا أقطع نفسى حسرات من أجلك . . . ولكن ! . . . مالك أنت وهذا ! . . . متعك الله بزوجك ومد فى أيام سعادتك . . ولله أيام تقضت فى هذا المكان حين كان البدر يغمرنا فى سابغ لجته ، وحين كان يحدونا الميل والعطف إلى أسباب الهناء والنعيم . أتذكر يا صاح تلك الأيام ؟ أتذكر عهودنا ومواثيقنا ؟ أتذكر مجىء العجوز تنبهنا إلى الوقت وقد نسينا الوقت ونسينا الوجود ، أتذكر مجيئك إلى أبى تخطبنى ؟ وهل تذكر تسوّرك دارنا وتعريضك نفسك وإياى للخطر ؟ ثم هل تذكر وعدى إياك أن لن يكون لغيرك فى قلبى مكان ما حييت ؟ أقسم بهذه اللقيا على غير انتظار ! أقسم بحب ما زاده البعد إلا استعاراً . أقسم بحياتك أنت ما حنثت فى الوعد ، ولن أستطيع أن أحنث فيه . . . لكن . . . كل شىء يا صاح مضى وانقضى . رحم الله ذلك العهد ويرحمنى أنا أيضاً . إنه غفور رحيم .

. . . وانهدت يهزها البكاء . أما أنا فقد صغرت أمام نفسى ، وتضاءل فى عينى قدرى ، ورأيتنى مجرماً بائساً شقيًّا . هذه السيدة أمامى تبلغ من علو النفس هذا المبلغ ويكون جهادى أنا أن أسدل على ما تذكره الساعة حجاباً كثيفاً ، وأنسى مواثيقى وعهدى ، وأنسى قلبى وروحى ، وأنسى كل ما فى الحياة من جميل وعظيم ، وأرضى ذلك العيش السخيف الذى ألبسونى ! كلا كلا ! لابد من استعادة هذا الماضى ولو ضحيت بالحياة فى هذا السبيل .

وصح ذلك العزم منى ، فهدأت جأش صاحبتى وقلت لها :

– ما نسياناً لعهد سلف ، ولا فتوراً فى حب يملأ وجودى ، حصل ما تقولين . لكنى خشيت أن أنغص عليك عيشاً ربما وجدت فيه الطمأنينة . والآن أفتعدينني إن أنا طلقتك من زوجك أن تكونى لى زوجاً ؟

قالت وما تزال العبرة تخنقها وعيناها مغرورقتان بالدمع :

– وهل رأيتنى يا صديقى رجوت فى الحياة غير هذا؟

وقضينا ما بقى من الليل فى حديث طويل تخللته الذكرى والعتاب والاستغفار . فلما أذن مؤذن القرية انسحبت هى إلى المخدع الذى أُعد لها ، وقمت أنا إلى المسجد فنلت فيه إغفاءة ما كان أحوجنى إليها بعد ليلتين مملوءتين بأقوى الإحساسات وأقساها ، وبعد سفر يوم طويل . فلما خلوت إلى نفسى ساعة الضحى أخذت أفكر فى الوسيلة لتنفيذ ما اعتزمت .

عملت جهدى ، وأفنيت كل وسائل السلم لإقناع زوجها بتسريحها ؛ فكنت كلما ازددت إصراراً ازداد هو ضنًّا بها وإمساكاً عليها . ثم أصبح الأمر بيننا عناداً ، وصار هو يرى عملى هذا جريمة أنغص بها عيشه وأفسد عليه حياته وأجنى بها على الفضيلة والمروءة ، وشاركه فى رأيه كثيرون بلغ من حنق بعضهم علىَّ أن خاطبنى مواجهة بأن ما أجترحه أكبر الكبائر .

لم يكن ذلك ليغير من رأيى ولا ليثنينى عن عزمى ، بل جاءت محبوبتى إلى بيت أهلها بإشارة منى ، وتبدلت وسائل السلم مع زوجها وسائل وعيد وتهديد . ولقد سوّلت لى يوماً نفسى أن أدس إليه من يقضى عليه ، وكنت مقدماً على هذا لولا أن وقفت هى دونه مخافة ما فيه من خطر ربما جر علينا فراق الأبد .

وإنا لفى شغل بتدبير أمرنا إذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التى تقل أبوينا عائدة من الحجاز ، فانقلب الفرح مأتماً ، وارتدت النساء ثياب الحداد ،

وأصابت الفاجعة موضع الألم من نفسى ونفس صاحبتى ، وصارت تجمعنى وإياها مع رابطة الحب رابطة الأسى المشترك .

وانتهى المأتم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدى لزوج صاحبتى ، وذهبت أفكر فى وسيلة أخرى لبلوغ غرضى ، وانتهيت إلى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بأنه طلقها . وكم تهللت هى حين عرضت عليها هذا الرأى من غير أن تفكر فيما تحتاج إليه مثل هذه الدعوى من المجهودات لتكون نتيجتها على ما تريد .

على أن هذه المجهودات لم تكن شيئاً أمامى . ودعى الزوج للمحكمة الشرعية كى يسمع حكمها بأنه طلق زوجته . واستمرت هذه الدعوى أكثر من سنة استنفدت منى من العناية واليقظة والجهد مالا يحيط به خيال إنسان . فلم أترك شاهد زور إلا أتيت به ، ولا كاتباً فى المحكمة إلا رشوته ، ولا قاضياً إلا وصلت إليه . ولقد كاد الملال من هذه الجهود يصل بى إلى اليأس مرات . فلكم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن الكاتب رأى أن ما وصله غير كاف فأراد المزيد ! ولكم طلب منى باسم حضرة القاضى فلم أجد حيلة إلى رد طلبه ! وكم مرة رأينا تحوير المحضر وتغيير ما ثبت على لسان بعض الشهود . . . ولولا دافع من الحب والكرامة كان يدفعنى إلى الانتصار لهان علىَّ أن أترك كل شىء .

ثم صدر حكم المحكمة بالتفريق ؛ فطرت وحملت الخبر إلى صاحبتى وعانقتها عناقاً طويلاً . ولبثنا يومين ثملين بلذة النصر فى هذه المعركة الطويلة متهللين للمستقبل الذى يتم فيه زواجنا . لكن تعاقب الأيام دس إلى نفوسنا ما شغل بالنا . ذلك أن المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق ، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلالاً عند الله ؟

هنالك ذهبت إلى زوجها وعرضت عليه جلية الأمر ، وقلت له :

– يا شيخ ! لقد أرهقناك من أمرك عسراً . لكنك رجل خير لا ترضى أن تحملنا وزراً . وأنت تعلم أنا لم يدفعنا إلى ما عملنا الوقيعة بك أو المس بشرفك ، وإنما دفعنا إليه مالا قبل لنا بدفعه . فهل لك فى مثوبة من الله فتنطق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضمائرنا ؟ .

فأطرق الرجل طويلاً يفكر ثم قال :

– لقد والله حملتمانى هماً طويلاً . أما وقد رجعتما تريدان الله فليرض الله عنكما . وهى طالق . طالق . طالق . . .

فشكرت له منته ، ورجعت إلى أهلى وبلغت صاحبتى الخبر ، ثم ناديت زوجى وذكرت لها ما تعلم مما كان وما سيكون ، وقلت :

– وإنى لأخشى بعد زواجى ألا أعدل بينكما ، فإن شئت راضية سرحتك سراحاً جميلا .

وانقضت أشهر وتزوجنا . وكان يوم زواجنا حافلاً جاء فيه الذين كانوا يعيبون عملى يهنئوننى ، وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق .

ورزقت من زوجتى أبناء ثلاثة : بنتاً وولدين . وهؤلاء الأبناء هم عندى زينة الحياة بل الحياة . هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذى أنفقه أبوهم السعيد بهم . أفتعجب بعد ذلك مما رأيت من ذهولى حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد ؟ !

* * *

إلى هنا انتهت قصة صاحبى . وهى قصة ألقت للهوى بزمام الحكم حتى فى دور القضاء . وقد غادرت صاحبى بعدها فغادرت رجلاً من السعداء القليلين الذين رأيت فى حياتى . غادرته وأنا أغبطه على ما متعه الله به من نعمة سابغة وهناء مقيم . . .